

العمل الفني ليس كواليس لظمر الحقائق

«الفتنة» رواية تحتل على التاريخ بالخيال

تستغل الكثير من الروايات التاريخية أو السيرية أحداثها بالاعتماد على وقائع حقيقية، والتي يلعب فيها الخيال دور إعادة بناء التاريخ، والنظر إلى الأمور من زوايا أخرى مهمة، لكن لعبة المزج بين الواقعي والخيالي في روايات من هذا النوع ليست بالسهلة، إذ قد تسقط الروائي في مزلق التحريف أو الاحتيال والتزوير، ليبرر رأياً ما خاصاً، ولا ينجح حينها التبرير الفني في إسقاط هذه التهم عنه.



عبد الحميد الصائغ
كاتب عراقي

لم يؤد شيعية العراق أنفسهم في التاريخ كما أنوها اعتباراً من يوم 10 أبريل عام 2003 وحتى يومنا هذا، ذلك ما يريده قوله كتعمان مكينة، المهندس المعماري والكاتب السياسي، الذي نشر أشهر كتبه في تفكيك الدولة المنهارة التي حكمها صدام حسين "جمهورية الخوف"، "القسوة والظلم"، باسم سمير الخليل لينشر اليوم روايته المثيرة للجدل "الفتنة".

في روايته يجسد مكينة شعوره المرير هذا بمحاولة الإقتراب وثائقياً ومختللاً من تقاطع التوجهات والإقتراس البيئي للفتنات الشيعية المسلحة التي نشأت أو نشطت بعد احتلال العراق عقب تراكم الظلم والقمع وبيئة ومخلفات الحروب.

تضم الرواية شخصيات شيعية من مختلف الأنماط، فمنهم شيعية الخارج المنقسمون بين من يمثلهم في الرواية "عصابة الثلاثة عشر" حسب التوصيف الذي يورده مكينة على لسان مناوئهم من جيش الإمام، ويقصد السياسيين الشيعية الذين شنكروا بمجلس الحكم، تحت سلطة الأميركيين وتنازلوا عن دم أقرب أصدقائهم السيد مجيد الخوئي الذي قتل بشاعة في ذلك اليوم، والشيعية القادمين من إيران.

المؤلف يؤسس روايته على هدف محدد هو إدانة المسؤولين الذين استلموا الحكم بعد احتلال العراق وسقوط صدام

ويذكر أيضاً شيعية الداخل المنقسمين بدورهم إلى معارض للاحتلال ومتواطئ معه، والمنخرطين في حروب متعاقبة بين تحالف شيعي مع السنة -هيئة علماء المسلمين- لمقاومة الأميركيين في حرب النجف، وحرب شيعية شيعية بين جيش الإمام وجيش بدر، ثم حرب سنية شيعية طاحنة أودت بحياة عشرات الآلاف من الأبرياء على الاسم والهوية.

سيرة مسلح وبلاد

يأتي الكاتب على ذكر الشيعية الذين قاموا بالاحتلال ثم انخرطوا في عملياته السياسية، وشيعية دعموا الحكومة الشيعية وهم أنفسهم عملوا ويعملون على إفشالها. بين شيعية الرحمة الذين كتبوا النظريات والفقه والفلسفات، وشيعية القسوة الذين استلموا السلطة وافشلوا الدولة بمساعدة نماذج تشبههم من الطوائف الأخرى، لينتهي حال العراق إلى دولة محطمة فاشلة كالتى نراها اليوم.

هكذا يضع الكاتب والسياسي العراقي كتعمان مكينة الخطوط العامة لتجربة الشيعية السياسية ما بعد 2003 في روايته التي يتخادم فيها الخيال مع الوقائع بحبكة تبدو فخاها من التبرص لتفريغ أفعال صاحب بلغة ومسارات درامية وشخصيات مبنية كعمرات معقدة بين انقراض الخراب.

تبدأ الرواية مع تساؤلات شاب شيعي منخرط في جيش الإمام الذي أسسه السيد -يسميه الكاتب هكذا في الرواية- بعد أن يُكَلَّف بحراسة صدام حسين عند تسلمه من الأميركيين وسوقه مباشرة إلى منصة الإعدام



إلا أن استدراكات الشاب هذه لم تكن بتأثير مما حدث ذلك اليوم فحسب، بل يمكن القول إن المشهد أطلق العنان لتأثير متراكم من المواقف شهدتها وعاش أحداثها وشخصياتها اختلت صورهم بعد تقصيه توارخهم وأفعالهم، وأبرزهم عمه القيادي في جيش الإمام الذي له فضل تكليفه بهذه المهمة الحساسة، والذي رعاه بعد مقتل أبيه ليقتسى مع أمه في بيتهم، أمه التي أثرت به حكمة ودليلاً إلى شخصية أبيه الضابط السابق الذي هرب من حرب 1991 والتحق بالانتفاضة ثم أعدم بعد أن القي القبض عليه وهو محتبئ بصحبة رجلين تمكنا من الهرب قبل مجيء رجال أمن النظام.

أسئلة وتوقفات بقيت معلقة من ذلك اليوم 10 أبريل عام 2003 الذي شاهده فيه بمدينة النجف جثة رجل مرقتها الطعنات بالسكاكين مرمية في شارع مقابل ضريح الإمام متسائلاً عن هويته دون أن يحصل على إجابة من أحد ليمضي في تعقب قصتها فتكتشف أمامه حقائق مفرقة تخلق قناعاته إلى اتجاهات ومهام شتى، لاسيما بعد أن يعرف أن هذه الجثة تعود للسيد مجيد الخوئي ابن المرجع الديني الشيعي الراحل أبو القاسم الخوئي، والأكثر دهشة من ذلك حين يعرف أن قتلته من الشيعية بعد أن أشاعوا كونه عميلاً، بل الأكثر من ذلك حين يخبره جده بأن السيد مجيد هو أحد الرجلين الذين كانا محتبئين مع أبيه وهربا قبل إلقاء



جناية تاريخية

إذا المؤلف يؤسس روايته على هدف محدد هو إدانة المسؤولين الذين استلموا الحكم بعد احتلال العراق وسقوط صدام وتحديد المسؤولين الشيعية الذين تحاربوا وأضعفوا أنفسهم والبلد معهم، متخذاً من الروايات



ما بعد الحرب تغير كل شيء (لوحة للفنان سيروان باران)



العنف يخلق عوالم غريبة (لوحة للفنان سيروان باران)

الاجهزة الأمنية، وعمليات تصفيات البعثيين السابقين من قبل مسلحين في بدر واستشراء النفوس الإيراني لتعقب الطيارين السابقين، ومعلومات لا حاجة لروائي أن يبتكرها لأنها متداولة بين الحقيقة والمبالغة، غير أنها ترد على لسان شخص يدعي معرفته بجميع من حكموا العراق، وأنه يريده التبرؤ من أخطائهم وأنه يستند إلى معلومات دقيقة من أشخاص لكتابة روايته وأنها السيد مصطفى الكاظمي، الذي هو الآن رئيس الوزراء في العراق، أمر بغير الدهشة.

ارتكب مكينة جناية مركبة في عمله هذا، ذلك أنه كتب موقفه السياسي كرواية اعتمدت أحداثاً أصدر أحكاماً مسبقة عليها، وكان يفترض أن يكتبها كبيان سياسي أو سيرة موثقة ويوقع عليها دون الحاجة إلى كتابتها رواياً بهذا المكر والالتباس المفضوح، فالعمل الفني ليس كواليس لظمر الحقائق بل إشراقات مضيئة لإنتاج المعرفة والجمال من خلال توظيف الواقعة للخيال البدع، وليس الاحتيال على الخيال الملاءم الفرائغ والتهرّب من قول ما يلزم قوله.

كما يورد الكاتب ذلك في ذيل روايته، فكيف يمكن اعتمادها براءة أو اعتذاراً أو موضع إدانة أو شكوى قضائية وهي وقائع مشغولة بالخيال، وخيال يملأ مصادر التي أشار إليها وأهمها شهادة الصحافي العراقي معد فياض الذي جاء برفقة سيد مجيد وشهد بعينه ما جرى ونجا من الحادث ليعود إلى لندن التي يقم فيها ويؤلف كتاباً عما رأى.

عبر هذا الإنشاء الروائي يمارس كاتب الفتنة مكرًا فريداً في ترويض الواقعة للخيال والعكس، ورغم أن ذلك ليس معيياً في البناء الفني للعمل الروائي المعتاد بل يعد امتيازاً من مناح ما، لكنه مع عمل يتحدث عن سيرة سياسية تهم بلداً وشخصيات يراها مقروطة بالدماء وتخرّب البلد وإضاعة مستقبل أمة، ثم يؤسس في النهاية موقفاً سياسياً محدداً بناءً على ما ورد في روايته، لا يُمكن اعتباره نسجاً وخلقاً بقدر ما هو احتيال على الخيال لتغذية أفعال شخصي مسبق من ظاهرة سياسية.

الاحتفال هنا يحط كثيراً من قيمة الوثيقة بوصفها دليلاً صريحاً على جريمة أو جرائم عليها شهود مباشرين

التي نُسجت عن اغتيال الشهيد مجيد الخوئي مرتكراً قصصياً وتحقيقياً يوصله إلى التلميح بل اليقين بمسؤولية السيد عن مقتله استناداً إلى بعض مصادره التي أشار إليها وأهمها شهادة الصحافي العراقي معد فياض الذي جاء برفقة سيد مجيد وشهد بعينه ما جرى ونجا من الحادث ليعود إلى لندن التي يقم فيها ويؤلف كتاباً عما رأى.

عبر هذا الإنشاء الروائي يمارس كاتب الفتنة مكرًا فريداً في ترويض الواقعة للخيال والعكس، ورغم أن ذلك ليس معيياً في البناء الفني للعمل الروائي المعتاد بل يعد امتيازاً من مناح ما، لكنه مع عمل يتحدث عن سيرة سياسية تهم بلداً وشخصيات يراها مقروطة بالدماء وتخرّب البلد وإضاعة مستقبل أمة، ثم يؤسس في النهاية موقفاً سياسياً محدداً بناءً على ما ورد في روايته، لا يُمكن اعتباره نسجاً وخلقاً بقدر ما هو احتيال على الخيال لتغذية أفعال شخصي مسبق من ظاهرة سياسية.

الاحتفال هنا يحط كثيراً من قيمة الوثيقة بوصفها دليلاً صريحاً على جريمة أو جرائم عليها شهود مباشرين



كتعمان مكينة ارتكب جناية مركبة ذلك أنه كتب موقفه السياسي كرواية بأحكام مسبقة